رواية الشعر وتدوينه

حافظ العرب على شعرهم فقد كان وسيلة من وسائل حفظ تاريخهم وحروبهم وأيامهم، كما كان وسيلة لنشر أمجاد القبائل العربية على حفظ شعر شعرائها وتداوله بين أبنائها إذ كان ديوانه الذي جمع كل تراثها وعلومها وتاريخها .

لم يعرفِ الشعر الجاهِلِيُّ التدويْنَ إلاَّ بعد عهدٍ من الزمنِ، فقد تداولُوهُ وتناقلوه عبْر الروايةِ، وهم قد عرفوا الكتابةَ كما تفيدُ الأدلةُ، ولكنَّهم لَمْ يستخدموها لتخليد الشعر الجاهِلِيِّ، بل الرواية والحفظ الوسيلة الأولَى لتداولِهِ، فيلقي الشاعر قصيدته أمامَ الناسِ ويروونَها.

وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع أن العرب الشماليين نمو الخط النبطي وتطوروا به إلى خطهم العربي منذ أوائل الجاهلية ؛ فقد وجدت نقوش مختلفة تشهد بذلك، ونرى شعراءهم يشيع عندهم تشبيه الأطلال ورسوم الديار بالكتابة ونقوشها مثل قول المرقش الأكبر

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم

وكثير من الشعراء يشبهون رسوم الديار بالوحي أو الكتابة في الحجارة الرقيقة، يقول لبيد بن ربيعة العامري:

عَفَتِ الديارُ محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

فمدافع الريان عري رسمها خلقًا كما ضمن الوحي سلامها

وجلا السيول عن الطلول كأنها زُبُرٌ تجد متونها أقلامها

فهو يشبه رسوم الديار بالوحي أو الكتابة في الحجارة الرقيقة، ويقول :

إن السيول جلت التراب عن الطول؛ حتى لكأنما آثار الديار كتبٌ طمست فأعيد بعضها على بعض وترك ما تبين منها؛ فهي مختلفة، ويدور هذا التشبيه كثيرًا في أشعارهم؛ مما قد يدل على أن كثيرين منهم كانوا يعرفون الكتابة، بل إن فريقًا منهم،

كما يقول الرواة، كان يعرف الكتابة الفارسية على نحو ما حدثونا عن لقيط بن يعمر الإيادي وعدي بن زيد العبادي .

- ومما لا شك فيه أن الكتابة كانت شائعة في الحواضر وخاصة في مكة التاجرة، وفي السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فداء الأسرى القرشيين الكاتبين في بدر أن يعلم الأسير منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ، وكان من يكتبون بين يديه الوحي وفيما يعرض من أموره وأمور المسلمين في عقودهم ومعاملاتهم كثيرين ؛ فالكتابة كانت معروفة بل كانت شائعة في الجاهلية، ورويت أخبار متفرقة تدل على أن بعض الشعراء استخدمها بلاغًا شعريًّا لقومه في بعض ما حزبه من الأمر. وأن نظم الشعر في الجاهلية كان مرتبطًا بها وبمعرفتها؛ بدليل اختلاف القراءات للفظة الواحدة، وأيضًا فإن استخدام الشاعر لبعض القوافي النادرة يدل على أنه كان يلاحظ العين أكثر مما يلاحظ الأذن. للهجرة، وأيضًا فإن الشعر فن سمعي، وليس فنًّا بصريًّا.

كما اننا لم نجد بين أيدينا أي دليل مادي على أن الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ربما كتبوا بها بعض قطع أو بعض قصائد؛ ولكنهم لم يتحولوا من ذلك إلى استخدامها أداة في نقل دواوينهم إلى الأجيال التالية؛ فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء في حفظ دواوينهم .

- ولا نكاد نمضي طويلًا في العصر الإسلامي حتى تتحول العربية من لغة مسموعة فحسب إلى لغة مسموعة مكتوبة. وهو تحول شارك فيه العرب والمستعربون وكل ما بين أيدينا من روايات عن كتابة بعض الأشعار في الجاهلية إنما يدل على أن الكتابة كانت معروفة، وخاصة في البيئات الآخذة بشيء من الحضارة، ونقصد المدن مثل مكة والمدينة والحيرة؛ ولكنه لا يدل بحال على أنها اتخذت أداة لحفظ الشعر الجاهلي ودواوينه. ولو أنهم كان لهم كتاب جمعوا فيه أطرافًا من أشعارهم لما أطلق الله جل وعز على القرآن اسم الكتاب؛ فلا كتاب لهم من قبله لا في الدين ولا في غير الدين.

- أما ما يقال من أن المعلقات كانت مكتوبة ومعلقة في الكعبة فمن باب الأساطير، وهو في حقيقته ليس أكثر من تفسير فسر به المتأخرون معنى كلمة المعلقات؛ فقد جاء في العقد الفريد أنه بلغ من شغف العرب بالشعر أن "عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة

وعلقتها في أستار الكعبة؛ فمنه يقال: مذهَّبة امرئ القيس ومذهبة زهير، والمذهبات السبع، وقد يقال لها المعلقات" ولو أنهم تنبهوا إلى المعنى المراد بكلمة المعلقات ما لجأوا إلى هذا الخيال البعيد. ومعناها المقلدات والمسمطات. وكانوا يسمون فعلًا قصائدهم الطويلة الجيدة بهذين الاسمين وما يشبهما.

- إن القرآن الكريم على قداسته لم يجمع في مصحف واحد إلا بعد وفاة الرسول، وبعد مشاورة بين أبي بكر رضوان الله عليه والصحابة؛ فذلك وحده كاف لبيان أن العرب لم تنشأ عندهم في الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه في كتاب، إنما نشأ ذلك في الإسلام وبمرور الزمن. أما في الجاهلية فكانوا يعتمدون فيه على الرواية وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته، ويتلقاها عنه الناس ويروونها. ومعنى ذلك أن النهر الكبير الذي فاض بالشعر الجاهلي إنما هو الرواية الشفوية. وقد ظلت أزمانًا متتالية في الإسلام. ويدل على ذلك أقوى الدلالة أن الحديث النبوي ظل في أغلب أحواله يعتمد على الرواية والمشافهة إلى نهاية القرن الأول للهجرة. وإذا كان الحديث بما له من قدسية لم يعمدوا إلى تدوينه تدوينًا عامًّا إلا بعد مرور نحو قرن على الهجرة الشريفة فأولى أن يكونوا قد اتبعوا ذلك في الشعر الجاهلي .
- ومن يرجع إلى شعرهم يجد شعراؤهم يذكرون دائمًا الرواية وأنها وسيلة انتشاره في القبائل؛ فهي الوسيلة التي كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها إلى آفاق الجزيرة، يقول المسيب بن علس :

فلأهدين مع الرياح قصيدة مني مغلغلة إلى القعقاع

ترد المياه فما تزال غريبة في القوم بين تمثل وسماع

فقصيدته تنتشر في القبائل، ويرددها الناس مستمعين إليها ومتمثلين بأبياتها، ويقول عميرة بن جعل نادمًا على هجائه لقومه وشيوعه في العرب وأنه لم تعد له حيلة في رده . يقول :

ندمت على شتم العشيرة بعد ما مضت واستتبت للرواة مذاهبه

فأصبحت لا أسطيع دفعًا لما مضى كما لا يرد الدر في الضرع حالبه

- ان رواية الشعر في العصر الجاهلي كانت هي الأداة الطيعة لنشره وذيوعه، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافًا هي طبقة الشعراء أنفسهم؛ فقد كان من يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعرًا يروي عنه شعره، وما يزال يروي له ولغيره حتى ينفتق لسانه ويسيل عليه ينبوع الشعر والفن. ونص صاحب الأغاني على سلسلة من هؤلاء الشعراء الرواة الذين يأخذ بعضهم عن بعض، وقد بدأها بأوس

بن حجر التميمي؛ فعنه أخذ الشعر ورواه حتى أجاد نظمه زهير بن أبي سلمى المزني، وكان له روايتان كعب ابنه والحطيئة، وعن الحطيئة تلقن الشعر ورواه هدبة بن خشرم العذري، وعن هدبة أخذ جميل صاحب بثينة، وعن جميل أخذ كثير صاحب عزة .

- هناك مدرسة تامة من الشعراء الرواة تتسلسل في طبقات أو حلقات، وكل حلقة تأخذ عن سابقتها وتسلم إلى لاحقتها، ومن أهم ما يلاحظ في هذه المدرسة أن شعراءها أو رواتها كانوا من قبائل مختلفة ، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعراء القبيلة الواحدة كان يروى خلفهم شعر سلفهم، فالأعشى كان رواية لخاله المسيب بن علس وكان يأخذ منه ، وقالوا: إن أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لساعدة بن جؤية الهذلي ، ومن يقرأ ديوان الهذليين يجد أواصر فنية قوية تجمعهم وتربط بينهم. وأيضًا فإن طرفة كان يروي عن خاله المتلمس الذي ربي في أخواله من بني يشكر. وقد لا تكون القبيلة الجامعة الواصلة؛ فقد يجمع بين الشعراء سلوك في الحياة كالصعاليك أو الفرسان فيروي بعضهم لبعض، ويأخذ بعضهم عن بعض، على نحو ما نلاحظ عند تأبط شرًا والشنفرى أو عند أبي دؤاد الإيادي وزيد الخيل.

- لم يكن الشعراء وحدهم الذين يهتمون برواية هذا الشعر؛ فقد كان يشركهم في ذلك الاهتمام أفراد القبيلة جميعهم، لأنه يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم في حروبهم كما يسجل مثالب أعدائهم، وإلى ذلك أشار بعض بني بكر معيرًا تغلب لكثرة ترددها لقصيدة واحدة هي معلقة عمرو بن كلثوم، وكأن ليس لها شعر سواها، يقول :

ألهَى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يروونها أبدًا مذ كان أولهم يا للرِّجال لشعر غير مشئوم

ولم يكن أبناء القبيلة وحدهم الذين يشيعون شعر شعرائها؛ فقد كان كثير من أفراد القبائل الأخرى يشتركون معهم في إشاعته؛ إذ كان بينهم جم غفير من الحفظة، كانوا يتناقلون الشعر وينشدونه في محافلهم ومجالسهم وأسواقهم؛ إذ لم يكن لهم شاغل سواه، وكان يسجل مآثرهم ومثالبهم وأنسابهم وأيامهم وأخبارهم، ومن ثم قال

عمر بن الخطاب: " كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه" فهو كل علمهم وكل حياتهم.

- وعند مجيء الإسلام انكبوا على تلاوة القرآن الكريم، ولكن لم ينسوا شعرهم أبدًا، حتى منذ بدء الدعوة الإسلامية؛ فقد كان الرسول عليه السلام يستحث حسان بن ثابت وغيره من شعراء الأنصار على هجاء قريش والرد على شعرائها، وكان أبو بكر نسابة راوية للشعر الجاهلي، وكان يتمثل به أحيانًا في خطابته كخطبته المشهورة في يوم السقيفة.

وهذا شأن الصحابة جميعًا؛ فقد كانوا كثيرًا ما يتناشدون الأشعار ويقصون بعض الأخبار عن جاهليتم . وكانوا كثيرًا ما ينثرون الأشعار الجاهلية التي تتصل بوعظهم في تضاعيف قصصهم. وقد أخذت جماعة تُعْنى بغزوات الرسول وما قيل فيها من الشعر، وأخذ يظهر بجانبهم جماعة تعنى بأخبار العرب الماضيين وما كان يجري على ألسنة شعرائهم.

- وهذا يعني أن رواية الشعر الجاهلي كانت مستمرة في صدر الإسلام، وقد أخذت تظهر عوامل تشد من أزرها وتقوي من شأنها؛ فقد أخذت تنشأ منذ تدوين عمر للدواوين حاجة شديدة لمعرفة الأنساب؛ إذ كانت تلعب دورًا مهم في رواتب الجند الفاتحين وفي مراكز القبائل بالمدن الجديدة التي خطَّطوها مثل البصرة والكوفة.

- وفي العصر الاموي نجد في الحرب التي نشبت بين علي ومعاوية اشتعال العصبيات القبلية اشتعالًا لم تَخْبُ نيرانه حتى نهاية العصر الأموي، وكان الشعر الوقود الجزل لهذه العصبيات؛ فأخذت كل قبيلة تعني برواية شعرها الجاهلي الذي يصور مناقبها ومثالب العصبيات؛ فأخذت كل قبيلة تعنى برواية شعرها الجاهلي الذي يصور مناقبها ومثالب خصومها، ويتناقله أبناؤها؛ فهو جعبة سهامهم التي يوجهونها إلى خصومهم.